التوحيد

التوحيد؛ مضامينه على الفكر والحياة

تأليف: د. إسماعيل راجي الفاروقي

ترجمة: د. السيد عمر

ربيع الأول ١٤٣٥/ يناير ٢٠١٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٣/٢٣٣٠٤

الترقيم الدولي ISBN 978-977-85022-8-2

خطوط: عبد الغني شعير

جميع الحقوق محفوظة للناشر c

مدارات للأبحاث والنشر

٥ شارع ابن سندر- الزيتون- القاهرة- جمهورية مصر العربية

ص.ب ٣٠ منشية البكري ، رمز بريدي ١١٣٤١

تليفون: ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢

www.madarat-rp.com **info@madarat-rp.com**

الإشراف العام

د. أحمد وجيه السيِّد - د. أنس خالد زبيده - أحمد عبد الفتاح بيُّومي

- الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبِّر بالضرورة عن رأي الناشر-

إسماعيل راجي الفاروقي

التوحيد

مضامينه على الفكر والحياة

ترجمة: د. السيّد عمر

مدارات للأبحاث والنشر
Madarat for Research and Publishing

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

«سورة العنكبوت، آية ٦٩»

المحتويات

الموضوع	الصفحة
شكر وعرفان	٩
تصدير المترجم: نسيج توحيدي إسلامي فريد	١١
المقدمة	٣١
الفصل الأول	
التوحيد: جوهر الخبرة الدينية	٣٩
الفصل الثاني	
التوحيد: لباب الإسلام	٦١
الفصل الثالث	
التوحيد: مبدأ التاريخ	٨٥
الفصل الرابع	
التوحيد: مبدأ المعرفة	٩٣
الفصل الخامس	
التوحيد: مبدأ الغيب	١٠٧
الفصل السادس	
التوحيد: مبدأ الأخلاق	١٢٣
الفصل السابع	
التوحيد: مبدأ النظام الاجتماعي	١٥٥

الفصل الثامن

التوحيد: مبدأ الأمة ١٧٩

الفصل التاسع

التوحيد: مبدأ الأسرة ٢١٣

الفصل العاشر

التوحيد: مبدأ النظام السياسي ٢٢٩

الفصل الحادي عشر

التوحيد: مبدأ النظام الاقتصادي ٢٤٩

الفصل الثاني عشر

التوحيد: مبدأ النظام العالمي ٢٨٥

الفصل الثالث عشر

التوحيد: مبدأ الجمال ٢٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فالصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى أهله وصحبه أجمعين.

شكر وتقدير

يُعرب المؤلف عن بالغ العرفان ليد العون والتشجيع التي مدتها إليه الرابطة الدولية الإسلامية للمنظمات الطلابية، وللجهد المتواصل الذي بذلته رابطة انخاتان بيليا إسلام ماليزيا في إنجاز هذه الدراسة.

ويُعرب المؤلف بالمثل عن امتنانه وشكره للأخ وائل شوكت لَما كان له من فضل كبير في تحفيزه المستمر على التنقيب في القضايا المرتبطة بموضوع هذه الدراسة، وما قدَّمه من نقد مُلهِم للأفكار الواردة بها.

وتعجز الكلمات عن التعبير عن امتنان المؤلف للجهد الذي ساهمت به قرينته الدكتورة لويس لمياء، وابن أخته ميسم جواد، وابنته تيماء، في إعداد مخطوطة هذا الكتاب. جزاهم الله جميعًا خيرًا.

تصدير المترجم

نسيج توحيدي إسلامي فريد

قد لا نبالغ إن قلنا إن كتاب (التوحيد: مضامينه على الفكر والحياة) لعلامة الأمة الشهيد الراحل الأستاذ الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي، نسيجُ وحده. وسيدرك القارئ العربي أن تأخُّر تعريب هذا السفر زُهاء ربع قرن بعد صدوره باللغة الإنجليزية أمر مؤسف، وغير مبرَّر. وسيدرك الباحثون المعنيُّون بتأصيل المفاهيم الإسلامية أن حقَّ هذا الكتاب يجب أن يتجاوز مجرد قراءته بالعربية وهضم أطروحاته، إلى اتخاذه دليلاً لبحوث الأمة، ومنوالاً لكل التخصصات المعرفية الأساسية والبينية، تُنْسَج عليه كلٌّ من وصفها لواقع الأمة الجامعة المشوب بالوهن، ووصفتها للتعافي واستعادة العزة.

وتُطل هذه الدراسة التي تعتمد على التحليل المقارن، عبر اللجوء المباشر المكثَّف إلى القرآن الكريم، على حال الأمة الراهن ومستقبلها، من رحاب رؤية شاملة للفضاء المعرفي الرحب للتوحيد الخالص، مبيِّنةً أنه النواة الوحيدة الصالحة لخلافة الإنسان في الأرض، ولحمله الأمانة التي أشفقت السموات والأرض والجبال من حَمْلها، وحَمَلها هو. وبتحليل معرفي موسوعي مقارن تُبَيِّن الدراسة من ثلاثةَ عشرَ زاويةً تفرُّدَ التوحيد الإسلامي، وسموَّ المبادئ النابعة منه على كافة الرؤى الأخرى على صعيدَيْ: التخلية المحرِّرة للعمران على هذه الأرض من دواعي الفساد والخلل، والتحلية المكرِّسة لكل دواعي التمكين والصلاح والإصلاح.

وتبدأ الدراسة بتسليط الضوء على مفارقة كون أمتنا تتصدر الأمم المعاصرة من حيث الإمكانيات الظاهرة والكامنة. ومع ذلك فإنها تنتقل باطراد من وضعية الأمة الشاهدة على غيرها من الأمم إلى وضعية الأمة المتكالَب عليها، ومن وضعية الأمَّة ذات الإسهام الحضاري الرفيع في ماضيها، إلى الأمة ذات الإسهام الهزيل والمتواضع في حاضرها. وتَخلُّص من تلك المفارقة إلى أن أُمَّتنا بحاجة إلى تفعيل سُنَّة الله تعالى في تغيير ما بالنفس باتجاه التوحيد الخالص، بوصفه شرطَ تغيير حالها.

وتُسلِّط الدراسة الضوء على حركة الإصلاح في الأمَّة في القرون الأخيرة التي ابتليت فيها الأمَّة بما عُرِف بالاستعمار الغربي التقليدي ومن بعده الاستعمار الحديث، باحثةً عن

تفسير لسرِّ عدم نجاحها في تحقيق التغيير المطلوب. وتشير إلى أنَّ السبب هو أنَّ حركات الإصلاح في الأمة في العصر الحديث عُنِيَتْ بالبعد المادي وبمعايير مستعارة، واتخذت خَطًا هابطًا فيما يتعلق بحفاوتها بالبعد الروحي وهو الأهم، فضلاً عن غفلتها عن تلبية شرط رفع مستوى وعي جماهير الأمة إلى مستوى وعي صفوتها بعملية تربوية رشيدة جامعة وشاملة، بؤرتها هي التوحيد.

وتُلخِّص الدراسة أمر التغيير السني الرشيد والفعَّال كله في مقولة أن الأمة كانت وما تزال بحاجة إلى حركة تغيير إصلاحية نابعة منها تنقب في عمقها، وتتحلى بالوسطية، وتعير الجوانب الروحية اعتباراً أكبر، وتعاير البعد المادي ذاته من مرجعية توحيدية، وتتجاوز مستوى العمل النخبوي، إلى مستوى تأهيل الأمة كلها لتمثل مشروع الإصلاح الحضاري.

وتقرر الدراسة في هذا الصدد أنه لا عودة للأمة إلا بالإسلام. فبه تتخلص من داء الشعوبية الذي يفترسها جسداً وروحًا. والناظم القومي - وفق خبرته التاريخية - مفلس ما لم يكن ناظمه ومظلَّته هي: التوحيد الإسلامي. ويقيم الفاروقي حجته على ذلك من ثلاثة عشر مدخلاً، يبرهن عبرها على التوالي على أن التوحيد هو: جوهر الخبرة الدينية، وجوهر الحضارة، ومبدأ التاريخ، ومبدأ المعرفة، ومبدأ الغيب، ومبدأ الأخلاق، ومبدأ النظام الاجتماعي، ومبدأ الأمة، ومبدأ الأسرة، ومبدأ النظام السياسي، ومبدأ النظام الاقتصادي، ومبدأ النظام العالمي، ومبدأ الجمال.

وفريضة العصر في تقديرنا بالنسبة للجماعة المعرفية العلمية المسلمة، وكذا لأهل الحل والعقد فيها ولجماهيرها - فكل منهم مكلف بأن يكون راعيًا ومسئولاً عن رعيته - هي الوقوف على تفصيلات هذا الإجمال بقراءة واعية لهذا السِّفر المعرفي أكثر من مرة، ومراجعة كثير من الرؤى والمقولات التي رسّخها الوهن والوهم في فكرنا وفي حياتنا، برغم كونها في جوهرها هزيلة لا تصمد أمام النقد الجادّ المستنير من أرضية معرفية إسلامية، وبمعايير أصيلة نابعة، نستعيد بها روحنا، ونتوقف بها عن اجترار ما به تتواصل تبعيتنا، وتتعمق الشُّقّة بين إمكانيات أمتنا ومكانتها.

ولا بأس من تضمين هذا التصدير إطلالة خاطفة على حدود تحليل الفضاء المعرفي لسؤال هذه الدراسة بخيوطه الفكرية المعرفية الثلاثة عشرة سالفة الذكر.

فالخيط الأول في نسيج التوحيد كما غزله منوال الفاروقي هو تلخيص الخبرة الدينية الإسلامية في وضع البشرية في حالة استحضار دائمة لـ«المعية الإلهية»، مع المفارقة المطلقة بين الخالق - سبحانه وتعالى - والمخلوق، في مقابل افتتان الأنساق المعرفية المغايرة للنسق الإسلامي من قبل ومن بعد بالإنسان أو بالطبيعة. ومبدأ السببية محكوم في ظل هذه المعية الجامعة بين نظامَي المخلوق والخالق المفارقين بالمطلق، بالإرادة الإلهية المطلقة، وهو دائمًا متكيِّف بها ومعها. وكل شيء في الوجود هو مجرد وسيلة لغاية أسمى منه. ومنتهى كل الوسائل والغايات هو طاعة الإرادة الإلهية التكليفية، التي شاء سبحانه أن يبنيها على الاختيار الإنساني الحر المسئول.

والإسهام الرئيس للإسلام ليس بناء وعي الإنسان بوجود ربٍّ له وللكون كله، وإنما في تحقيق التوحيد الخالص، بتطهير الوعي الإنساني من كل مظاهر الشرك الصريح والخفي التي لحقت به، وتجفيف منابع الشبهات التي يمكن أن تفضي إلى الوقوع في حبائلها، بتخليص الإنسان من المفهومات الزائغة مثل: الأب والابن، والمخلِّص، واتخاذ مفهوم الإله الواحد الأحد أساسًا للمعيارية.

ولباب هذا الخيط الفكري الأول هو الثنائية الأم للعمران في المنظور الإسلامي: المعيارية المفارقة الإلهية المصدر، والذات الإنسانية الفردية والجماعية الحرة المسئولة في تعاملها مع تلك المعيارية. فالحرية الإنسانية جليلة في ميزان الله تعالى. والإنجاز المرتقب تحقيقه بها حالة استقامتها على صراط الله تعالى بالغ العظمة. وتحديات الانحراف عنها حالة اتباعها الهوى والشيطان جد وخيمة. ومقتضى حمل الإنسان الأمانة المتمثلة في التكليف الحر هو حاجته إلى المنهج الرباني، وإلى الأخذ بأسباب الحفاظ على استواء الفطرة التي فطره الله تعالى عليها، وإثرائها.

ورسالة الإنسان في هذه الحياة هي ملء الوجود بالقيمة. والقيم على ثلاث درجات: أولية طبيعية، وسائلية نفعية، أخلاقية. وقيم الدرجة الأولى محكومة بسنن كونية لا دخل للإنسان بها. وقيم الدرجة الثانية محكومة بنفع لا يتجاوز هذه الحياة الدنيا. وحدها قيم الدرجة الثالثة هي العليا، وهي التي ينفرد الإنسان بالقابلية لتحقيقها، لكونها مبنية وجودًا وعدمًا على إرادته الحرة المسئولة. وبها يصير الإنسان صاحب رسالة كونية في هذه الحياة.

وبما أن كل مخلوق ميسر ومؤهل لما خلق له، فإن الإنسان قادر على تحصيل المعرفة الكافية بالإرادة الإلهية المتعلقة بالمستوى القيمي الأخلاقي بالوحي المُنزَّل وبالفطرة وبالحواس. والإسلام لا يعرف شيئًا اسمه الخلاص، بل الفلاح بالفعل الإنساني الأخلاقي، لا بفعل الغير.

وفي عبارة (لا إله إلا الله) تلخَّص الإسلام كله، والكون كله، وانفتح أفق السلام الإسلامي ليشمل المجتمع الإنساني برمته، برؤية توحيدية، تبدل معها لاهوت الخلاص، وحركة التاريخ باتجاه فلاح تسعى إليه الإنسانية بنفسها بحرية توحيدية مسئولة، فيكون محكمًا له غاية، بحركة إنسانية منضبطة بالمنهج الرباني، في أمة مفتوحة جامعة، متناغمة مع كل ما في الكون، بتسبيح مشترك جامع، لباب تسبيحة الذات الإنسانية الفردية والجماعية في ظله هو: إعادة تشكيل كل ما هو مسخر له على نحو حر ومسئول. فإن أعاد الإنسان التشكيل باتجاه مثالية الإرادة الإلهية، فإنه يفوز بالفلاح في الدارين. وإن هو أعاد تشكيلها في غير الاتجاه الذي أراده الله لها، خرج بالخسران والبوار. ولا سقف للفلاح الذي يمكن للإنسان تحقيقه غير استطاعته، التي هو مكلف بأن يسعى إلى اتخاذ الأسباب على الدوام لتعزيزها. والله تعالى هو المصدر الوحيد لإمداد الإنسان - فردًا وجماعة - بمعيار التعامل الصحيح مع ربه من جهة، ومع أمر ربه التكليفي في علاقاته مع غيره من البشر، ومع الموجودات الطبيعية من جهة أخرى.

أما الخيط الثاني في هذا النسيج التوحيدي، فيتعلق ببيان أهمية التوحيد بالنسبة للحضارة، بمعادلة محورية: الإسلام هو جوهر الحضارة. والتوحيد هو جوهر الإسلام. فلا إسلام إلا بالتوحيد. والتوحيد مفهوم قابل للوصف والتحليل بوصفه نواة للإسلام والثقافة والحضارة الإسلامية. ويؤثر التوحيد على مقومات الوجود على درجتين: تحويل شكل المقوم، وتحويل جوهره.

ويتخذ الفاروقي رحمه الله مادّة هذا الخيط الفكري الهام من رصد وتفكيك العبث اليهودي والمسيحي بمفهوم (الإله) عبر عملية تأويل للنصوص تحرف الكلم عن مواضعه. فلقد أحل اليهود تأويلهم وفهمهم للنص المنزل محل ذلك النص. ثم كانت جناية

المسيحيين على المفهوم بإسقاط التحريف اليهودي له على شخص المسيح عليه السلام، واختلاق مقولة: الإنسان الإله.

وبتحليل عميق وشفاف، ينقد الفاروقي، بل ينقض، ذاك التأويل وذاك الإسقاط - مبينًا من منظور إسلامي توحيدي - أن الإنسان مفطور على التوحيد، وأن الشرك بكل صوره وتجلياته ومظاهره نتاج نظم فاسدة في التربية، وفعل التأويل والتاريخ. ومن هذا الجذر يتتبع الكيفية التي انتقلت بها الأمة الإسلامية من حصن التوحيد الخالص المبني على المفارقة المطلقة بين نظامي الخالق والمخلوق، وعلى عبادة الإنسان الحر المسئول لربه وحمله أمانة الخلافة بأمره في الأرض، إلى الإصابة بغبار الشرك. ويفسر في ذات الوقت سر مناعة المسلمين ضد الشرك، وتعاظم قابليتهم للتخلص منه بالقياس بغيرهم من الأمم. فأما باب الغبار فهو تسلل داء التشبيه من ثقافات أمم دخلت في الإسلام أفواجًا، كان وعيها قبل ذلك مشوبًا بشرك. وأما مرد قوة جهاز المناعة الحضارية عند المسلمين ضد الشرك، فيعود الفضل فيه إلى الحفاظ على اللغة العربية، والثبات على كتابة القرآن بها، واعتبار كل ما يكتب حوله بأي لغة أخرى مجرد معان للقرآن وليس نصًا له. وبذا تجنبت الأمة ما وقعت فيه أمم غيرها من فوضى مفاهيمية، جراء كتابة الكتب المنزلة عليهم بغير اللغة التي تنزلت بها. فبالحفاظ على لسان القرآن العربي المبين ثبتت معايير فهمه وإنزاله على الواقع على ما كانت عليه في عهد التنزيل.

وبحفظ اللسان العربي، تجنبت الأمة الوقوع في أسر تحريف رسالة الإنسان على الأرض وعلاقته بالكون. وفي مقابل نظرة المسيحيين إلى الكون على أنه ساحة الخطيئة والجسد، وإلى الإنسان على أنه كائن محكوم مصيره بمخلص خارجي، يخلصه من هذه الحياة، تقف الرؤية الإسلامية للكون على أنه أفضل، بل أكمل العوالم الممكنة. والغاية من خلقه أن يملأه الإنسان بالقيمة الأخلاقية، وتلك هي رسالة الإنسان الكونية وسر تكريمه. والبشر والمخلوقات محكومون بالمشيئة الإلهية التكوينية والتكليفية على قدم المساواة، وهم موضوع الفعل الأخلاقي. والفلاح، وليس الخلاص، هو غاية الإنسان في هذه الحياة. ووزن الإنسان في الآخرة مرهون بمدى إنجازه لرسالته الكونية في هذه الحياة.

أما الخيط الفكري الثالث، فيتعلق ببيان أن مبدأ التاريخ هو التوحيد. فالتاريخ يبني على إرادة إنسانية أخلاقية تشمل: إجماع النية والقدرة والعمل. ومهمة الإنسان في الحياة، وجوهر مفهوم العبادة هو: قيام الإنسان بالربط بين الموجودات وتوجيه العلاقة بينها باتجاه تلبية مراد الله تعالى. ويقدم الفاروقي عدة إضاءات معرفية بالغة الثراء في هذا الصدد، أولاها: المغايرة بين المنظور اليهودي المسيحي، وبين المنظور الإسلامي بخصوص التاريخ الإنساني.

ففي حين يقوم المنظور الأول على وجود مملكة للرب مقابلة لمملكة الدنيا، على هذه الأرض، يؤكد المنظور الثاني أنه لا وجود إلا لمملكة واحدة على الأرض. والدنيا ليست كما يزعم المنظور الأول مسرحًا للخطيئة والنفس والشيطان والجسد، بل هي مسرح لتجسيد الإرادة الإلهية، على مستوى قيمي أخلاقي، على الأرض بزمانها ومكانها. وفي حين تشكلت صورة الحياة الدنيا والآخرة، في الوسط اليهودي المسيحي بالتأويل والفعل التاريخي، فإن المسلمين تلقوا تلك الصورة كاملة من القرآن. ومن أهم قسمات تلك الصورة: المفارقة الكاملة بين صورة وسنن الحياة الدنيا والآخرة. الأولى دار عمل، والثانية دار حساب وجزاء. والرهبانية في هذه الحياة الدنيا مجانبة لمراد الله تعالى للإنسان.

فالإسلام يقول لا لتمركز الإنسان الأخلاقي حول نفسه. ولا يقيم وزنًا للقيم الشخصية، ما لم تكن أسبابًا يرجى التزود بها من أجل الارتقاء بنوعية حياة الإنسان على الأرض، وبحركة التاريخ بالاتجاه الذي يتمشى مع إرادة الله تعالى. وأمْرُ الله تعالى نبيه عليه السلام بالانتقال من لحظة تجلي النبوة بتنزُّل «اقرأ» عليه بالغار، إلى ساحة الدعوة إلى الله دليلٌ ثرى المضمونات في هذا الصدد. والتحذير النبوي لنماذج أرادت الانغماس في الفعل الأخلاقي المنعزل عن المجتمع، شاهد آخر يصب في الاتجاه ذاته.

أما الخيط الرابع فيسبر أغوار مفهوم التوحيد بوصفه مبدأ منهجيًا، لا مجال في ظله، للشكوكية ولا للإيمان المسيحي. ويجلي هذا الخيط العبث الغربي بمفهومي العقيدة والإيمان. ويبين كيف قلب الغرب مفهوم الإيمان المرادف لليقين إلى مفهوم متلبس بالشك والاحتمال والاشتباه. ويضع في أيدينا مفتاح هذا التزييف، متمثلاً في عدم ربط مفهوم العقل الديني بالنص المُنَزَّل، بل بفكر الكنيسة وروحها، وتصوير الإيمان على أنه مقابل للتجريبي.

وينطلق هذا الخيط من تلك المقدمات إلى تجلية الطابع المفارق للإيمان الإسلامي بالمقارنة بنظيره المسيحي، مبيِّنًا أن الإيمان الإسلامي مقولةٌ معرفية. فهو عقلاني لا مجال للاعتقاد غير المبني على بينة فيه. فهو قائم على معرفة الخبر الذي هو مؤسس عليه وتمحيصه. وهو المبدأ الأول للنقد، وأساس التفسير العقلاني للوجود.

وجوهر التوحيد بوصفه مبدأ منهجيًا هو: وَحدَةُ الحق والحقيقة والخالق، واستطاعة الإنسان معرفة تلك الوحدة. ويقوم التوحيد بوصفه مبدأ منهجيًا معرفيًا على ثلاثة مرتكزات: رفض كل ما لا يتمشى مع الحقيقة، ونفي التناقض النهائي، والانفتاح الدائم على دليل المخالفة وعلى الدليل الجديد.

وجوهر العقلانية هو التمييز بين التناقض السطحي أو المتوهم وبين التناقض القاطع. وخلاصة التوحيد بوصفه مبدأ منهجيًا معرفيًا أنه لا تناقض بين العقل السوَيِّ والوحي. وبالانفتاح على دليل المخالفة والدليل الجديد، يحمى العقل الإنساني نفسه من الركود والتكلس ومن التعصب النسبي، ويتأهل للتواضع الفكري، بالوعي بعجزه عن الإحاطة بالحقيقة كاملة وبكل أبعادها على الدوام من جهة، وللإقرار بأن وحدانية الله تعالى تستبطن وحدة مصادر الحقيقة، وللتسليم من ثمَّ بضرورة التسامح المعرفي.

ولباب مفهوم التسامح المعرفي هو الإقرار بأن الله تعالى هو المصدر الأسمى للخير في الوجود، وإحسان الظن به سبحانه وتعالى. ويقود ذلك إلى التفاؤل المعرفي، المبني على أن الأصل في الأمور هو الإباحة والخيرية، إلا ما حرم بنص. أما عن مقومات هذا المفهوم فهي: مبدأ اليسر المخلص للإنسان من الإصر والأغلال، بقبول الحاضر إلى أن يقوم الدليل القاطع على زيفه، والوعي بأن الله تعالى زود الإنسان بفطرة سوية، وبوحي منزل على رسل في كل الأمم، وبأن دين الله تعالى واحد، وبأن تعدد الأديان والانحراف عن الفطرة، ناتج من سوء التأويل وفعل التاريخ. ومن متطلبات مفهوم التسامح المعرفي دراسة تاريخ الأديان المقارنة لرصد جوهرها الأصيل، ورصد الإضافات والتحريفات التاريخية التي لحقت بها وتخليصها منها.

ونصل بذلك إلى الخيط الفكري الخامس الموضح لحقيقة أن التوحيد هو مبدأ الغيب. ويرصد هذا الخيط الرؤية الأخلاقية المسيحية والهندوسية للحياة الدنيا بوصفها ساحة

سقوط، وللإنسانية بوصفها ساقطة فيها بحاجة إلى التخلص منها بفعل خارج عن استطاعتها الذاتية. وبرغم تأثر الفكر المسيحي بالفكر الإسلامي، ثم بفكر النهضة والتنوير، فإنه لم يستطع الخروج من أسر الخطيئة الأبدية والمستعصية على الحل الإنساني. فالحياة الدنيا ظلت برغم كل ما حققه العقل المسيحي من تطور مغايرة للنعمة الإلهية، ومجسدة لمملكة الشيطان.

وفي المقابل تأتى نظرة الإسلام لطيبات الحياة الدنيا وإيجابيتها، ولهدفية الحياة وخيريتها، وارتباطها بنظام محكم من السنن الكونية والمشيئة الربانية، والفعل الإنساني الأخلاقي الحر المسئول. ومع أن الأسباب فاعلة بحكم أن سنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتغير، فإنها محكومة في نهاية المطاف بإرادة الله التي لا معقب عليها. وكل ما في الوجود من خلق الله، ومصيره إليه. والإنسان كائن عابد حر مسئول مستطيع بفطرته، وبتلمسه لأسباب الاستطاعة في كونٍ قابلٍ لتلقى فعله فيه.

ويؤسس الفاروقي لبناء صرح العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية على هذا الخيط الفكري الهام. وببيان فاعلية الأسباب والسنن المبثوثة في الكون مقرونة بكونها منظومة في نهاية المطاف بالمشيئة الإلهية المطلقة ينفتح الباب أمام تحرير العقل الإنساني من الشعوذة والسحر والخرافة، ويتم تجفيف منابع الدجل والشرك، وتتاح الفرصة لتحرير العقول، ولبناء علوم محررة من الأساطير.

ومن الإضاءات المعرفية المهمة التي يقدمها الفاروقي على هذا الخيط الفكري أن بناء العلم لا يحتاج إلى نفي فعل الله تعالى المستمر في الكون، بل إلى تخليص العلم من أساطير الأرواح والأشباح الوهمية. ومبدأ التوحيد هو الذي يجمع كل خيوط السببية ويضعها في يد الله تعالى وحده، ويستأصل ظن وجودها في يد قوى أخرى وهمية خفية.

وخلاصة هذا الخيط الفكري الفارق أن التوحيد الإسلامي هو شرط العلم المؤسس على سنن كونية تكوينية وتكليفية ثابتة. والكون في ظل هذا المبدأ له غاية، ويسبح بجناحين: الاعتماد المتبادل بين المخلوقات، والانسجام والتناغم الكامل بينها، لكونها مخلوقة بقدر، ومحكومة بسنن ومشيئة ربانية. فقط يعتريها الخلل بما كسبت أيدى الناس، بالانحراف عن أمر الله التكليفي.